البعد الأخلاقي للزهد عند أهل الصفة

(أبو ذر الغفاري أنموذجا)

د. هاجر الطيب عمران
قسم الفلسفة – كلية الآداب بالزاوية

مقدمة:

إنَّنا لا نجد بذور الحياة الروحية الإسلامية مغروسة في قلب النبي ﷺ، وصحابته من الخلفاء الأربعة فحسب، وإنَّما نجدها أيضاً في قلوب صحابته من غير الخلفاء. فأهل الصفة من الصحابة مثلاً كان لهم أثر قوي في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية، حتى أنَّ البعض يذهب إلى أنَّ اسم التصوف مشتق من اسمهم، وقد كان أهل الصفة جماعة من فقراء المهاجرين والأنصار، لم يكن لهم أهل ولا مال، فبنيت لهم صفة(*) في مسجد الرسولﷺ انقطعوا فيها إلى الله وعكفوا على العبادة ورياضة النفس، والتجرُّد عن أعراض الدنيا، فنزل فيهم قوله تعالى:﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف:الآية28].

وقد وصف أبو نعيم الأصفهاني في كتابه:(حلية الأولياء) أهل الصفة فقال: "هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من عرض الدنيا، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا حال، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى"(1).

ونحاول في هذا البحث الإجابة عن السؤال التالي: ما السبب الذي جعل من أهل الصفة ينتهجوا هذا المنهج الزهدي في حياتهم الروحية؟ وما البعد الأخلاقي الذي يمكن أنْ يهدف إليه؟

أمَّا عن الهدف وسبب اختياري لهذا الموضوع فهو إظهار الحياة الروحية المثلى لضعفاء المسلمين، وفقراء المهاجرين، والذي كان فيها الزهد غايةً ومنهجاً يسير على هدى من الكتاب والسنة.

وانتهجت في هذا البحث المنهج التحليلي الوصفي فقمت بتقسيم البحث إلى النقاط التالية:

أولاً- الأخلاق لغةً واصطلاحاً:

أ- الأخلاق لغةً.

الأخلاق جمع خلق، وهى السجية والمروءة[1]. وهو يحمل في الحقيقة وصف لصورة جميلة أو قبيحة[2]، وتجدر الإشارة إلى أنَّ لفظ خلق ورد في القرآن الكريم بمعانٍ كثيرة، كما في قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[سورة القلم،:الآية4]، ويقول ابن منظور: "اشتقاق خليق وما أخلقه من الخلاق، وهي التمرين ويقال للذي أَلِفَ شيئاً فصار ذلك له خلقاً تمرَّن عليه، ومن ذلك حسن الخلق"[3].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ من هذه التعريفات ما يتعلَّق بفسيولوجية الإنسان الخلقية الظاهرة، ومنها الآخر ما يتعلق بالجانب السيكولوجي النفسي الروحي، لأنَّ الإنسان مركَّب من جسد وروح، ولكل واحد منهما هيئة وصورة، إمَّا قبيحة وإمَّا جميلة، كما أنَّ الخلق غير التخلُّق، فالخلق يعنى الطبع، أمَّا التخلُّق فيعنى التطبُّع، أو التكلُّف أو التصنُّع.

ب – الأخلاق اصطلاحاً.

تعريفات علم الأخلاق تعدَّدت واختلفت باختلاف المفكرين وطرق تفكيرهم، ونظرتهم لماهية الأخلاق وطبيعتها، ولعل هذا الاختلاف وعدم الاتفاق على تعريف جامع مانع للأخلاق يعود لأسباب أهمها: أنَّ هذا العلم علم معياري(*)، وليس علماً وصفياً(**)[4] أي يبحث ويهتم بما ينبغي أنْ يكون، لا بما هو كائن، فغاية هذا العلم وضع مثل أعلى يسير بمقتضاه الإنسان، وتحديد ماهية الخير والشر والتطلُّع نحو الأفضل.

ومن الواضح أنَّ أقدم التعريفات يقال إنَّها ترجع إلى جالينوس (129-199) الذي ذهب أنَّ "الخلق حالة للنفس داعية الإنسان إلى أنْ يفعل أفعال النفس بلا روية واختيار"[5]. أما أرسطو فقال: "إنَّ الفضيلة الأخلاقية تأتى نتيجة للعادة، وأنَّ اسم الخلق ينتج عن انحراف بسيط عن كلمة العادة"[6].

معنى هذا أنَّ الأخلاق تطلق على سلوك الفرد الذي يتفق مع عادات مجتمعه وتقاليده، ومن ثم فهو صاحب الخلق، لأنَّ الخلق يخص الإنسان دون غيره من الكائنات الأخرى، كما تُعرف الأخلاق بأنَّها "علم بالقواعد والحقائق التي لو روعيت عملياً لكان السلوك الإنساني على خير ما يطلب"[7].

من الواضح أنَّ هذا التعريف جمع بين بعدين أخلاقيين، هما العلم والعمل، الذي هو علم بالقواعد العامة التي لو طبِّقت عملياً لصار الإنسان خيِّراً.

كما عرِّفت الأخلاق بأنَّها العلم المعياري الخاص بالسلوك، أو العلم الذي يحكم على السلوك بأنَّه صائب[8].

يتضح مما سبق أنَّ الأخلاق ليست علماً وصفياً، بل هي علماً معيارياً، يضع المعايير والقواعد التي ينبغي مراعاتها، و بها تقاس قيم الأفعال الإنسانية.

ثانياً- نبذة عن حياة أهل الصفة:

يعد أهل الصفة من الذين مثلوا النموذج الواقعي للزهد والفقر والعبادة والتنسك، حيث كان الرسول ﷺ يحبهم ويجالسهم، ويحث الناس على إكرامهم ومعرفة فضلهم، وكان أبوهريرة من أشهر من سكن الصفة، طيلة حياة النبي ﷺ ولم يبرحها، ومن الذين لزموا الصفة من الصحابة على سبيل المثال لا الحصر: معاذ بن جبل، سلمان الفارسي، أنس بن مالك، وأبو ذر الغفاري[9].

وسؤالنا التالي من هم أصحاب الصفة؟ وما البعد الأخلاقي الذي يرمى إليه الزهد عندهم؟

كان الرسول ﷺ يعمل على تعميق الجانب الروحي في حياة المسلمين، فسرعان ما ظهرت طائفتان في المدينة، كان لهما الأثر الأكبر في الحياة الإسلامية فيما بعد:

1- الطائفة الأولى: وهي طائفة القراء من الأنصار، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، بل كانوا يلازمون الأعمدة ليلاً يجتهدون ويدرسون القرآن.

وكانوا الطبقة الأولى من النسَّاك والعارفين، والعباد الذين انقرض معظمهم على عهد الرسولﷺ، لم يتدنسوا بما فتح الله عليهم من زهرة الحياة الدنيا؛ أفتتاناً على قول أبى نعيم الأصفهاني فى الحلية: "وقد وصفهم عبد الله بن مسعود بأنَّهم حملة القرآن، وينبغي لحامل القرآن أنْ يعرف بحزنه، إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا يلغطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، بل ينبغي له أنْ يكون باكياً محزوناً، حكيماً عليماً سكيناً، ولا ينبغي أنْ يكون جافياً..."[10]. وكان للقرَّاء الدور المهم في حروب الردة، وكان نداؤهم في الحروب: "يا أهل أصحاب القرآن، زيِّنوا القرآن بالأفعال، واستشهد الكثير منهم في حروب الردة، وعاشوا فرقة زاهدة في عهد الخلفاء الثلاثة، ووقفوا بجانب على ابن طالب حين قامت الفتنة بينه وبين معاوية، لكنَّهم انشقوا عنه بعد ذلك، وكُّونوا أكبر فرقة سياسية زاهدة في الإسلام هي فرقة الخوارج[11].

2- الطائفة الثانية: التي اتصفت بالزهد وهي طائفة أهل الصفة في عصر الرسول ﷺ في المدينة. فما سبب هذه التسمية؟ وبأي شيء امتازوا؟.

أمَّا عن سبب تسميتهم بأهل الصفة: فكأن الرسول قد بنا الصفة في ظلال مسجد المدينة لضعفاء المهاجرين. فجعل المسلمون يوغلون إليها ما استطاعوا من خير، وكان رسول الله يأتيهم فيقول:"كيف أصبحتم؟ فيقولون بخير يا رسول الله، فيقول: أنتم اليوم خير من يوم، يغذى على أحدكم بجفنه ويراح عليه بأخرى، ويغدو في حلة ويروح في أخرى، وتسترون بيوتكم كما تستر الكعبة"[12]. فقالوا: نحن يومئذٍ خير يعطينا الله تعالى فنشكر. فقال الرسول: "بل أنتم اليوم خير"[13]. وكان أعيان مكة يكرهون الاجتماع بالرسول في وجود أهل الصفة؛ لفقرهم ومظهرهم، وكاد الرسول أنْ يستمع إليهم ولكن الله نهاه عن ذلك[14].

فعن سلمان الفارسي، وعيينة بن حصين، والأقرع بن حابس، وذووهم فقالوا يا رسول الله : إنك لو جلست في صدر المسجد، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم– يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين– إذ كان عليهم جباب الصوف، لم يكن عندهم غيرها فيخرج منها رائحة الضأن من شدة الحر– وخالصناك وأخذنا عنك فأنزل الله عز وجل قوله :﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا27﴾ ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [سورة الكهف،الآية27 ،28].

فقام نبي الله ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخرة المسجد، يذكرون الله، فقال الرسول ﷺ : "الحمد الله الذي لم يُمتني حتى أمرني أنْ أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات "[15].

من الواضح أنَّ هذه الآية نزلت وهي أمر من الله لسيد الخلق في أنْ يكون مع هؤلاء من الصفوة الزاهدين في الدنيا، الذاكرين الله بالغدو والآصال، وهم من نزلت فيهم هذه الآية، وفيها وعيد للأعيان والظالمين، وفيها تتلمس تواضعاً ورفقاً ومحبة، وهذه كلها فضائل أخلاقية.

تلك هي الحياة الروحية التي جعل منها الصحابة أساساً للزهد والتقشف والعفة والنزاهة، هم قدموا كل القيم الأخلاقية بكل جماليتها من حق وخير وجمال، فأخذوا من الدنيا بقدر ما تعينه على أداء ما يجب عليه دينياً ودنيوياً، وطبقاً لما أحلَّه الشرع، وتطبيقاً لما شرعه في كتابه، وعلى لسان رسوله.

فبما امتاز الزهد لديهم؟ وهل كان أمراً اختيارياً؟

ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر أنَّهم كانوا فقراء، وأنَّ الرسول كان يدعو أصحابه للبذل والعطاء ومراعاة أهل الصفة، إذ كان يقول لهم: "من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، وبسادس"[16].

بل كان الرسول ﷺ لا يقوم من مجلسه إذا جلسوا حتى يقومون، وكان إذا صافحهم لم ينزع يده من أيدهم قبلهم، لذا كان يفرقهم على أهل الجدات والسعات كل واحد على مقداره[17]، وهم قوم: "انقطعوا في صفتهم إلى الله وعكفوا على العبادة، وأمعنوا في رياضة أنفسهم على الزهد والتقشف فتجردوا عن أغراض الحياة الدنيا، واتجهوا وجهة روحية خالصة"[18].

يتضح ممَّا سبق أنَّ زهد هذه الصفوة كان منهجاً دينياً اختيارياً، وسلوكاً مستحباً، تتجلَّى فيه كل الفضائل من تواضع ومحبة وصبر على فاقه، وبالكرم رغم الحاجة. نستشف ومن خلال هذه الفضائل كلها، أنَّه متى ما ساد هذا المنهج، أي مجتمع وطبق في حياتنا، ستتقلَّص الفوارق الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء، ويشعر الأغنياء بآلام الفقراء، وبالتالي يعطفون عليهم ويتعاونون معهم في تحمُّل أعباء المعيشة والحياة.

ولقد وصفهم أبو هريرة في حياتهم فيقول: "إنَّهم أضيَاف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال "(19). فأين نفهم البعد الأخلاقي؟ أو القيمة الأخلاقية تحديداً من زهدهم؟

ممَّا سبق عرضه نستطيع القول إنَّ هؤلاء المسلمين أصحاب الصفة، حاولوا وبزهدهم إقامة مجتمع راق وفاضل قائم على سمو الأخلاق وعلو الهمة، فهم ضربوا مثالاً على الموازنة التي كانت في الزهد ومتطلَّبات الحياة الاجتماعية في مجتمعهم آنذاك، وهذا ما يؤكده الدكتور عبد اللطيف محمد بحد قول: لم يكن أهل الصفة مَثلَ فقراء التكايا(*)، بل كانوا أول من يسارع إلى القتال إذا دعا داعية، فكانوا بمثابة الجيش العامل الواقف على أهبة الاستعداد لأي نازلة (20). وحثهم عمر رضي الله عنه على أنْ يكفلوا أرزاقهم بأنفسهم، وكان عمر محقاً في الاجتهاد حتى لا يعيش المسلم متكلاً على سواه(21).

يتضح أنَّ الحياة الروحية لدى أهل الصفة قائمة على العمل السلوك العملي، وتلك هي فضيلة أخرى، حيث كانت هذه الحياة زهداً عملياً وتقشفاً عملياً وتطبيقاً عملياً لنصوص الشرع والدين، أيْ

موازنة عملية بين الحياة الدنيوية، وواجبات الحياة الأخروية، ومجاهدة عملية، وكلها فضائل فرضت نفسها وارتسمت. لذلك فهم جماعة جمعوا بين الإيمان والجهاد والعمل لأنَّهم أهل تقوى وصلاح، عن أبي قتادة قال عن النبي ﷺ : "أنَّ الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال"(22).

فالله يحب أهل التقى والصلاح، أهل الباقية لا الفانية وهؤلاء هم، عن سعد بن وقاص عن النبيﷺ قال: "إنَّ الله يحب العبد التقى، الغنى، الخفي"(23).

ثالثاً: حياة أبي ذر الغفاري.

ذكر القرآن الكريم صحابة رسول الله –رضوان الله عليهم أجمعين– في أكثر من آية من القرآن الكريم، ففي المهاجرين والأنصار يقول:﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الأنفال، الآية: 74]، وقوله:﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر، الآية:8–9]، فحين نتحدث عن الحياة الروحية عند صحابة رسول الله، فهي صورة عن الحياة الروحية عند الرسولﷺ.

1. اسمه. هو جندب بن جناده، وهو الذي قال فيه الرسول: ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من رجلٍ أصدق من أبى ذر.

2. كنيته. أبا ذر الغفاري كان من قبيلة غفار، التي كانت ممراً لتجارة قريش ذاهبة آيبة منها (24).

حياته:

كان أبو ذر من أبناء قبيلة غفار، لكنه امتاز عليهم بجرأة القلب ورجاحة العقل وبعد النظر، فكان يضيق أشد الضيق بهذه الأوثان التي يعبدها قومه من دون الله. ويستنكر ما وجد عليه العرب من فساد الدين وتفاهة المعتقد، ومن الطبيعي أنْ يكون متطلعاً إلى ظهور نبي جديد يملأ على الناس عقولهم وأفئدتهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور(25).

ثم تناهت إلى أبى ذر –وهو في البادية– أخبار النبي الجديد الذي ظهر في مكة، فقال لأخيه أنيس انطلق إلى مكة وأقف على أخبار هذا الرجل، الذي يزعم أنَّه نبي، وأنَّه يأتيه الوحي من السماء، أسمع شيئاً من قوله وأحمله إليَّ، ذهب أنيس إلى مكة، والتقى بالرسول –صلوات الله عليه وسلامه– وسمع منه ثم عاد إلى البادية، فتلقَّاه أبو ذر في لهفة، وسأله عن أخبار النبي الجديد في شغفٍ فقال: لقد رأيت – والله – رجلاً يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويقول كلام ما هو بشعر(26).

فقال له أبو ذر: ما شَفيت لي غليلاً فذهب يبحث عن محمد ﷺ لوحده، ولمَّا وصل مكة وهو متوجِّس خيفةً من أهلها، ظل في المسجد، فمر عليه علي – كرَّم الله وجه– ولمَّا عرف أنَّه غريب دعاه معه، وبات ليلته عنده، وفي الصباح عاد إلى المسجد دون أنْ يسأل أحدٌ منهما صاحبه عن شيء، ثم قضى أبو ذر يومه الثاني دون أنْ يتعرَّف عن النبي. فلمَّا كانت الليلة الثالثة قال علي –كرَّم الله وجه– لصاحبة : ألا تحدثني عمَّا أقدمك إلى مكة؟ فقال أبو ذر: إنْ أعطيتني ميثاقاً أنْ ترشدني إلى ما أطلب فعلت؛ فأعطاه علي ما أراد من ميثاق. فقال– أبو ذر– لقد قصدت مكة من أماكن بعيدة أبتغى لقاء النبي الجديد، وسماع شيء ممَّا يقوله. فانفرجت أسارير علي –رضي الله عنه– وفي الصباح ذهب به إلى محمد ﷺ فأقبل أبو ذر على الرسول فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال الرسول وعليك سلام الله ورحمته وبركاته، فأقبل الرسول–صلوات الله عليه– على أبي ذر يدعوه إلى الإسلام، ويقرأ عليه القرآن، فما لبث أنْ أعلن كلمة الحق ودخل الدين الجديد(27).

ونال أبا ذر من الويل والعذاب الشيء الكثير؛ لأنَّ قريشاً اعتبرته صابئاً، لولا أنْ أدركه العباس بن عبد المطلب عم النبي لقتلته قريش إلى أنْ قال لهم عم النبي: "ويلكم أتقتلون رجلاً من غفار، ممر قوافلكم عليهم، وأسلم من غفار خلق كثير، فقال فيهم الرسول ﷺ غفار غفر الله لها، واسلم سالمها الله"(28).

وكان مع الرسول الكريم في كل غزواته فلما أقام في باديته، قدم إلى المدينة وانقطع إلى الرسول ﷺ وأستأذنه في أنْ يقوم على خدمته؛ فأذن له ونعم بصحبته، وسعد بخدمته وظل الرسول ﷺ يؤثره ويكرمه(29).

من الواضح أنَّ مثل هؤلاء الصحابة قد اعترف لهم الإسلام بالعديد من التضحيات بالنفس، والمال، والولد، فهم كانوا ذوي حياة روحية عالية متمسكة بتعاليم الإسلام، مؤدية لها على أحسن وجه، سواء أكانت فرضاً، أم سنة، أم تطوعاً، أم استحباباً وأفضلية، وسواء أكانت عقيدة أم شريعة، أم أخلاقاً أم معاملات. فأين نفهم البعد الأخلاقي للزهد عند أبى ذر الغفاري؟

رابعاً: الزهد عند أبي ذر الغفاري.

أبو ذر الغفاري آلمه كل الألم المظهر الدنيوي الذي ساد الحياة الإسلامية، وأنكر أشد الإنكار أنْ يكون هذا هو الإسلام الحقيقي الذي دعا إليه محمدﷺ، وهو في جوهره ثورة روحية على المجتمع القرشي المترف، وتبلور هذا الألم، وهذا الإنكار في ثورة فردية عارمة قام بها صاحب رسول الله المتحنث(*) القديم(30). استمرت هذه الثورة حين استمر هذا الصحابي واقفاً أمام حُكام بني أمية، يجادلهم في الشؤون الدينية والدنيوية منتصراً للحق ولا يبالي في ذلك بما قد يتعرَّض له من الأذى والطرد والنفي، وهذه صورة من الصور الفريدة في الصدر الإسلامي الأول. وقد روي عن أبي ذر أنَّه قال: "إنَّ قيامي بالحق لله تعالى لم يترك لي صديقاً، وأنَّ خوفي من يوم الحساب ما ترك على بدني لحماً، وأنَّ يقيني بثواب الله ما ترك في بيتي شيئاً"(31).

من الواضح أنَّ كلام أبي ذر الغفاري يذكِّرنا بكلام الشيخ الحسن البصري الذي قال: "لقد أدركت أقواماً ما أنا عندهم إلا لص"(32).

فالقاسم المشترك بين الصحابي الجليل أبي ذر، وإمام التابعين الشيخ الحسن البصري أنَّه حمل زهدهما وورعهما بعد أخلاقي ألا وهو النصح الأخلاقي المتأتي من صدق إيمانه بأنَّ هذه الحياة فانية، وأنَّها طريق إلى عالم البقاء الأبدي، والخوف من الله سبحانه وتعالى، تلك هي القيمة الأخلاقية، وكلها قيم وفضائل، التي كان ينشدانها من زهدهما وورعهما. الذي كان أساسه الكتاب والسنة، لذا كانا وعاظاً وناصحين. ومصداقاً لذلك ما تحكيه إحدى الروايات عن معاوية حاكم الشام في خلافة عثمان بن عفان، الذي أسس فيما بعد الدولة الأموية، بأنَّه وقع خلاف بينه وبين الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري في موضوع الآية التي تقول:﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة التوبة، الآية:34]، فقد رأى رجل الدولة معاوية، ذو النزعة الدنيوية في هذه الآية تحذيراً لا يمكن أنْ ينطبق على الظروف الواقعية للدولة الإسلامية، ولكنَّه تحذير موجَّه إلى رؤساء الديانات الأخرى بالنسبة لجشعهم ومطامعهم. بينما الرجل التقي أبا ذر رأى عكس ذلك، وقال بأنَّ هذه الآية نزلت فينا وفيهم. وهنا لم يتفق بتاتاً مع آراء معاوية الذي عد تفسير أبي ذر بالغاً من الخطورة درجة أوجبت رفع أمره إلى الخليفة الذي أمر بأشخاص أبي ذر إليه، ثم أبعده في الرّبْذة(*) كي لا يؤثر بتعاليمه – التي يذهب فيها إلى ازدراء الحياة الدنيا– في الرأي العام بشكل مخالف للروح السائدة(33). فرحل إليها وأقام فيها بعيداً عن الناس، زاهداً بما في أيديهم من عرض الدنيا، مستمسكاً بما كان عليه الرسول وأصحابه من إيثار الباقية على الفانية.

الواضح أنَّ دعوة أبي ذر الغفاري الدينية الروحية في المال صبغت بالزهد والتقشُّف الذي بهما يحارب الطبقة الارستقراطية القرشية، وفيها يرفع من شأن الفقراء والضعفاء والمحرمين في مكة، الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، إذ كان الزهد الذي اصطبغ به الإسلام مانعاً لارستقراطي قريش من الدخول فيه

وتقويضه. فزهد أبو ذر وعلى هذا النحو منهج تطبيقي اختياري له فضائل أخلاقية عدة، منها إنفاق المال في سبيل الله وعدم كنزه، فهو جمر على صاحبه إنْ لم ينفق منه، وفي نفقته تتلاشى كل الفوارق الاجتماعية، ويشعر الأغنياء بالفقراء، وبالتالي يكون الرفق واللين، وهذه من أفضل الفضائل الأخلاقية.

وعندما أعاد معاوية بن أبي سفيان أبا ذر إلى المدينة صاح قائلاً : "إنَّ بني أمية تهددني بالفقر والقتل، ولبطن الأرض أحب إليَّ من ظهرها، وللفقر أحب إليَّ من الغنى"(34). وأخذت الحلقات تنقض من حوله خوفاً من سطوة بني أمية، وقد سئل ذات مرة لما تذهب الناس عنك؟ فقال:"إني أنهاهم عن الكنوز"(35).

ثم أعلن دعوته "بقوله أنَّ خليلي عهد إليّ أنَّه أيما ذهب أو فضة، فهو جمر على صاحبه حتى ينفقه في سبيل الله عز وجل"(36).

يتضح ممَّا سبق عرضه أنَّ الزهد عند أبي ذر منهجاً وطريقة، فلما كان هو المنهج والطريق لدى هذا الصحابي الجليل؟

كان منهجاً لما حمله من بعدٍ أخلاقي تميز بفضائله الكبيرة، فالزهد في المال يعلِّم المسلم أنَّ المال فتنة، وأنَّه وسيلة لكثير من المفاسد التي نراها في المجتمع، وعلى المسلم أنْ يحذر هذا المال حتى لا يوقعه في المهالك. وقد حدد الرسولﷺ الجوانب التي يصح فيها، والجوانب التي لا يصح فيها الزهد، فعن أبي ذر أنَّه ﷺ قال: "الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق ممَّا في يدي الله"(37).

فليس الزهد تحريم الحلال من مطعوم وملبوس ونحوهما، ولا إضاعة المال كرميه في البحر، أو تركه حتى يتلف، ولكن حقيقة الزهد أنْ تكون واثقاً بما عند الله أكثر ممَّا في جيبك؛ لأنَّه – أي ما في جيبك– مُعرَّض للضياع، وما عند الله في قرار مكين(38).

امتاز أبو ذر في زهده بالنصح الأخلاقي فقال: "يأيها الناس أنا جندب الغفاري، هلم إلى الأخ الناصح الشفيق" فاكتنفه الناس، فقال: "أرأيتم لو أنَّ أحدكم أراد سفراً، أليس يأخذ من الزاد ما يصلحه؟ فقالوا: بلى، قال: فسفر طريق يوم القيامة أبعد ممَّا تريدون، فخذوا منه ما يصلحكم. قالوا وما يصلحنا؟ قال: حجوا حجة لعظائم الأمور، صوموا يوماً شديداً حره لطول النشور، صلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور"(39). وقال:"اعزموا دنياكم ودعُونا وربُنا ودِيننا(*)"وقال سمعت رسول اللهﷺ يقول: "إنَّ أقربكم مني مجلساً يوم القيامة مَنْ خرج مِنْ الدنيا كهيئة ما تركته فيه"(40).

فالزهد الذي ناد به أبو ذر الغفاري هو الزهد المعتدل المتوافق مع الشرع والوحي قرآناً وسنة، وكان هذا النوع من الزهد منذ أنْ كانت الدعوة قد طبقه الرسولﷺ في حياته وعلى بيته وأهله، وكذلك الصحابة من بعده الذين أخذوا الحياة بعزة وكرامة، فكانوا عباد ونسَّاك استقوا منهجهم في الزهد من القرآن الكريم والسنة الشريفة، فما بالك بمن كان رفيق النبي والراوي لهذا الحديث وغيره. فالممعن في هذا الحديث يجد أنَّ الله هو الغافر والنافع والهادي، وأنَّ هذه الحياة غربلةٌ للأعمال، فمن عمل صالحاً له المثل، ومَنْ أحاطت بحياته الظلمات والويل من سوء فعله فيسأل نفسه، لا بل ويكون لائم لها!.

روى مسلمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ

مِـنْكُمْ مَـا زَادَ ذَلِـكَ فِـي مُلْكِـي شَـيْئًا. يَـا عِبَـادِي لَـوْ أَنَّ أَوَّلَكُـمْ وَآخِـرَكُمْ وَإِنْسَـكُمْ وَجِـنَّكُمْ كَـانُوا عَلَـى أَفْجَـرِ قَلْـبِ رَجُـلٍ وَاحِـدٍ مَـا نَقَـصَ ذَلِـكَ مِـنْ مُلْكِـي شَـيْئًا. يَـا عِبَـادِي لَـوْ أَنَّ أَوَّلَكُـمْ وَآخِـرَكُمْ وَإِنْسَـكُمْ وَجِـنَّكُمْ قَـامُوا فِـي صَـعِيدٍ وَاحِـدٍ فَسَـأَلُونِي فَأَعْطَيْـتُ كُـلَّ إِنْسَـانٍ مَسْـأَلَتَهُ مَـا نَقَـصَ ذَلِـكَ مِمَّـا عِنْـدِي إِلَّا كَمَـا يَـنْقُصُ المحـيط إِذَا أُدْخِـلَ الْبَحْـرَ. يَـا عِبَـادِي إِنَّمَـا هِـيَ أَعْمَـالُكُمْ أُحْصِـيهَا لَكُـمْ ثُـمَّ أُوَفِّـيكُمْ إِيَّاهَـا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"(41).

زهـد الصـحابي الجليـل أبـو ذر كـان منبعـه المدرسـة الكبـرى للفضـائل والنبـع الـذي لا ينضـب للقـيم هـدى الكتـاب والسـنة، مـن صـدق وحـق وصـبر وثبـات، فتـذرَّع بهـم ليـردع كـل قـبح يشـوب أي بعـد أخلاقـي صـافي، وكـان يقـول:"فإنـا كنـا فـي جاهليتنـا قبـل أنْ يرتـل علينـا الكتـاب، ويبعـث فينـا الرسـول، ونحـن نـوفي بالعهـد، ونَصْـدقُ الحـديث، ونحسـن الجـوار، ونقـرى الضـيف ونواسـى الفقيـر. فلمـا بعـث الله فينـا رسـول الله، وأنـزل علينـا كتابـه، كانـت تلـك الأخـلاق يرضـاها الله ورسـوله، وكـان أحـق بهـا أهـل الإسـلام، وأولـى أنْ يحفظوهـا فلبثـوا بـذلك مـا شـاء الله أنْ يلبثـوا، ثـم أنَّ الـولاة قـد أحـدثوا أعمـالاً قِباحـاً لا نعرفهـا مـن سـنَّة تطفـي وبدعـة تحيـى! وقائـل بحـق مكـذَّب، وأثـرةٌ لغيـر تقـي، وأمـين مسـتأثر عليهم من الصالحين..."(42).

ممـا سـبق يتبـين أنَّ زهـد أبـا ذر هـو خلـق تخلـق بـه هـذا الصـحابي ، فكـان عنـده المـنهج والطريـق الموصـل إلـى الـدار الفانيـة ومـا الباقيـة إلا دار لعمـل الخيـر والاقتـداء بأهلـه. دخـل عليـه رجـل ذات مـرة يقلِّـب الطـرف فـي بيتـه، فلـم يجـد فيـه متاعـاً، فقـال: يـا أبـي ذر، أيـن متـاعكم؟ فقـال لنـا بيـت هنـاك(*) نرسـل إليـه صـالح متاعنـا. ففهـم الرجـل مـراده، وقـال لـه: ولكـن لابـد لـك مـن متـاع مـا دمـت فـي هـذه الدار، فأجاب: ولكن صاحب المنزل لا يتركنا فيه(43).

فزهد أبو ذر وكان خلق وطريق ومصفاة لكل فعل، وكان الزهد الذي دعا إليه يعد ضمن البناء الأخلاقي الإسلامي، الذي شيَّده المسلمون تطبيقاً لمنهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما حمله من رحمة وتواضع وصدق وصفاء وجود. والذي فيه قال الرسولﷺ : "ما أقلت الغبراء(**) ولا أظلت الخضراء (***) من رجل أصدق من أبي ذر"(44).

الخاتمة

من خلال عرضنا توصلنا إلى النتائج التالية:

1- إنَّ الحياة الروحية لدى أهل الصفة كانت قائمة على الزهد والتقشف، وإيثار الحياة الأخروية عن الحياة الدنيوية، أي حياتهم حياة الأخلاق وفضائلها، فكان الزهد عندهم طريق ومنهاج للحياة كلها.

2- صفاء الروح وطهارة النفس جعلتهم يتساموا عن كل ما هو مادي ساعين إلى حياة أكثر اعتدال واتزان، بلا إفراط ولا تفريط ولا تشدد ولا مغالاة، فنادوا بفضيلة الاعتدال والتوسط.

3- صحيح أنَّهم كانوا من فقراء المسلمين لم يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا دنيا زائلة، ولكن استطاعوا أنْ يبنوا مجتمع راق وفاضل قائم على سمو الأخلاق وعلو الهمة، وهذا لم يأت إلا بعد مجاهدة للنفس وتحليتها بكل خلق جميل، من بعد تخليه من كل الرذائل.

4- مثل زهد الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري الذي هو أحد رجالات أهل الصفة الزهد الأخلاقي، وما حمله من نصح ووعظ وإرشاد، فكان بذلك الشبيه الآخر للحسن البصري، فزهدهم كان جامعاً للنصح واللين والتواضع وحباً لله، وليس هذا بغريب فهذا هو حال أهل القرآن ومحبوه.

5- دعا أبو ذر الغفاري إلى الزهد في المال؛ لأنَّه رأى أنَّ المال فتنة، وأنَّه وسيلة لكثير من المفاسد التي في المجتمع. لذلك صرخ بقوة في وجه الولاة بهذه الآية، التي

هي كانت حجته عليهم لقوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة التوبة،الآية:34]

حاول أبو ذر الغفاري بصرخته المتمثلة في نصحه أنْ يوقظ الضمائر، وأنْ يعيد للمجتمع القرشي صحوته، وحق الضعفاء والمحرمين والعبيد في ذاك المال، فحارب بدعوته الدينية والروحية تلك الطبقة الأرستقراطية القرشية، وكانت غايته من ذلك نزول القادة إلى مستوى الفقراء. وهنا يتجلَّى الزهد بأبعاده.

فضلاً عن حب المسلم لإنفاق ماله في سبيل الله – كصورة من صور الزهد– قد يدفعه للتصدق به وإنفاقه إيثاراً لرضا الله سبحانه وتعالى لقوله ﷺ راداً عن سعد بن أبى وقاص حين أراد أنْ يتصدَّق بثلثي ماله: "الثلث والثلث كثير إنك إنْ تدع ورثتك أغنياء خير من أنْ تذرهم عالة يتكلفون الناس"(45).

6- الزهد عند أصحاب الصفة مثل صورة من صور الإسلام الواضحة، فضلاً على كونه منهج فهو وسيلة دينية اختيارية لتنظيم الحياة، وبه تتلاشى كل الفوارق بين الأغنياء والفقراء، فيكون الشعور واحد في تحمل أعباء المعيشة وصعوبة الحياة.

هوامش البحث ومصادره:

1- الطاهر الزاوي، مختار القاموس، ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1979، ط1، ص192.

2- ابن منظور، لسان العرب،تقديم الشيخ عبد العلايلى، ج2، بيروت، دار الجيل، 1988، ص182.

3- المصدر نفسه، ج2، ص1244-1248.

(*) هو المبدأ الأول أو القاعدة النموذجية التي تقاس الموضوعات عليها.

(**) و مرحلة انتقال بها ننتقل إلى دراسة تنظريه لموضوع ما في العالم ويتصل الوصف والتفسير اتصالاً يدمج أحدهما الآخر،محمد شفيق وآخرون، الموسوعة الفلسفية العربية،ج1، بيروت معهد الإنماء، 1986، ص65- 66.

4- جالينوس، كتاب الأخلاق، مجلة الآداب،ج1، الجامعة المصرية،1937، ص151.
5- أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، تحقيق أبو بكر التلوع، ليبيا، منشورات جامعة الجبل الغربي،1998، ص67.
6- أبو بكر زكري، مدخل إلى فلسفة الأخلاق، مصر، دار التأليف، 1969، ط1، ص7.
7- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، لبنان، المنشورات العالمية، 1999، ط1، ص240.
8- عبد الرحمن بدوي، الأخلاق النظرية، الكويت، وكالة المطبوعات، 1976، ص11.
9- الأصفهاني، حلية الأولياء،ج1، مصر مطبعة،1932،ص237، 238.
10- المصدر نفسه، ج1، ص248،237.
11- نفس المصدر، ح1، ص130-183. وأيضاً، ابن الجوزي، تلبيس إبليس، بيروت، دار الكتب العلمية،1970، ص163.
12- المصدر نفسه،ج1، ص131،130،123.
13- علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج3، الإسكندرية، ص103-104.
14- الأصفهاني: حلية الأولياء،ج1، مصدر سابق، ص340-345.
15- المصدر نفسه، ج2، ص340-345.
16- محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام، مصر الهيئة العامة للكتاب،1970، ص73.
17- الأصفهاني: حلية الأولياء، ج1، مصدر سابق، ص338.
18- محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام، مرجع سابق، ص23.
19- الأصفهاني: حلية الأولياء، ج1، مصدر سابق، ص339.

(*) التكايا أحد دور العبادة عند الصوفية الأتراك.

20- عبد اللطيف محمد عبده، التصوف في الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه، القاهرة، 2000، ط3، ص20.

21- عبد الرحمن بدوى، تاريخ التصوف الإسلامي، الكويت، وكالة المطبوعات،1975، ط1، ص127.

22- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدَّين، رقم الحديث1885.

23- رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم الحديث2965.

24- ابن حجر العسقلاني،الإصابة في معرفة الصحابة، ج3، مطبعة السعادة،1987، ص60-63.

25- ابن عبد البر،الاستيعاب، ج2، مطبعة حيدر أباد، ص645- 646.

26- ابن الجوزى، صفة الصفوة،ج1،حلب، دار الوعي،1991، ط1، ص245-238.

27- الشعراني،الطبقات الكبرى، ص32.

28- ابن الجوزي، صفة الصفوة،ج1، مصدر سابق، ص245-238.

29- المصدر نفسه،ج1، ص245-238.

(*) المتحنث: المتعبدون لله الواحد الأحد الفرد الصمد.

30- عبد الرحمن بدوي، شخصيات قلقلة في الإسلام،القاهرة، دار النهضة،1946، ص36-46.

31- الطوسي، اللمع، القاهرة، دار المعرفة،1960، ص186.

32- ابن الجوزي، صفة الصفوة ج3، مصدر سابق، ص156.

(*) قرية صغيرة من قرى المدينة.

33- جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، القاهرة، دار المعرفة، ص123-124.

34- سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام،ج3، الإسكندرية،1970، ص104،103.

35- المرجع نفسه،ج3، ص103-104.

36- المرجع نفسه، ج3، ص103-104.

37- منصور على ناصف، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، مشيخة الأزهر، ج5، القاهرة ،161،1990.

38- المصدر نفسه،ج5، ص161.

39- سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي، ج3، مرجع سابق، ص103-104.

(*) كان راداً بهذه المقولة عمَّا حاولوا استمالته بالمال.

40- المرجع نفسه، ج3، ص103-104.

41- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث2577.

42- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في معرفة الصحابة ج3، مصدر سابق، ص60-63.

(*) الدار الآخرة.

43- ابن عبد البر: الاستيعاب،ج2، مصدر سابق، ص645-546.

(**) الغبراء :الأرض.

(***) الخضراء: السماء.

44- عبد الرحمن رأفت، صور من حياة الصحابة،مصر، دار النفائس،1984، ط5، ص101.

45- رواه مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم الحديث1628.